

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

Medical and surgical treatment in prehistoric times

أ د/ زينب عبد التواب رياض خميس

أستاذ بقسم الآثار المصرية- كلية الآثار، جامعة أسوان (مصر)

nfrtkmt77@yahoo.com

ORCID iD Link: <https://orcid.org/0000-0002-3259-8743>

تاريخ الاستقبال: 2026/02/14 تاريخ القبول: 2026/03/14 تاريخ النشر: 2026/03/30

ملخص:

شهدت عصور ما قبل التاريخ بدايات تشكّل الممارسات العلاجية التي جمعت بين الخبرة الحسية والمعتقدات الروحية، حيث سعى الإنسان الأول إلى مواجهة المرض والإصابة عبر وسائل دوائية وجراحية بسيطة مستمدة من البيئة المحيطة به. ففي الجانب الدوائي، اعتمد على النباتات الطبية والأعشاب والجذور والراتنجات والطين والعسل، مستفيداً من خصائصها المطهرة والمسكنة والمضادة للالتهابات، وتراكت هذه المعارف من خلال الملاحظة والتجربة المتوارثة داخل الجماعة. كما استُخدمت المواد الحيوانية والمعدنية في تحضير مراهم وخلطات علاجية بدائية.

أما العلاج الجراحي، فقد تمثل في تدخلات عملية مباشرة لمعالجة الكسور والجروح والخراجات، إضافة إلى ممارسات أكثر تعقيداً مثل الكي والبتر البدائي وثقب الجمجمة (الترينة)، الذي ارتبط أحياناً بأهداف علاجية لتخفيف الألم أو الضغط، وأحياناً بتفسيرات سحرية لطرد الأرواح الشريرة. وتشير الشواهد الأثرية إلى معرفة نسبية بأساليب تضميد الجروح وتثبيت العظام باستخدام الجبائر.

وبذلك يتضح أن الطب في تلك العصور لم يكن منفصلاً عن البنية الروحية والاجتماعية، بل جمع بين العلاج المادي والطقوسي، حيث اضطلع المعالج أو الشامان

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

بدور مزدوج بوصفه طبيبًا وساحرًا في آنٍ واحد، مما مهّد الطريق لظهور نظم طبية أكثر تنظيمًا في الحضارات اللاحقة.

الكلمات المفتاحية: علاج دوائي؛ جراحة؛ أعشاب؛ المرض؛ الجروح.

Abstract

Medical practices in prehistoric times represent the earliest stages of human attempts to understand and treat disease, combining empirical knowledge with spiritual and ritual beliefs. In terms of pharmacological treatment, early humans relied heavily on natural resources available in their environment, including medicinal plants, herbs, roots, resins, clay, and honey, benefiting from their antiseptic, soothing, and anti-inflammatory properties. Animal and mineral substances were also used to prepare primitive remedies, ointments, and poultices. This knowledge accumulated gradually through observation, experimentation, and oral transmission within the community.

Surgical treatment involved practical interventions to address injuries and physical trauma, such as wound cleaning, bandaging, bone setting, and the drainage of abscesses. More advanced procedures included cauterization, rudimentary amputations, and trepanation (skull perforation), which may have served both therapeutic purposes—such as relieving pressure or pain—and ritual or magical aims, particularly the expulsion of harmful spirits. Archaeological evidence indicates a basic understanding of healing techniques and post-operative survival in several cases.

Thus, medicine in prehistoric societies was inseparable from the spiritual and social framework, where the healer or shaman functioned simultaneously as physician and ritual specialist. This integrated approach laid the foundations for the more structured medical systems that later emerged in early civilizations.

Key words: Drug treatment, surgery, herbs, illness, wounds.

مقدمة

يمثل تاريخ الطب أحد أبرز الشواهد على سعي الإنسان الدائم لفهم جسده وحمايته من المرض والألم، إذ ارتبطت محاولاته الأولى للعلاج بمرحلة مبكرة من تطوره الثقافي والمعرفي في عصور ما قبل التاريخ. ففي تلك الفترات، لم يكن المرض يُفهم بوصفه ظاهرة بيولوجية فحسب، بل ارتبط بتفسيرات سحرية وروحية، الأمر الذي انعكس على طبيعة الممارسات العلاجية التي جمعت بين التجربة الحسية والطقوس الاعتقادية. ومن هنا نشأت أشكال بدائية من العلاج الدوائي والجراحي، اعتمد فيها الإنسان على الموارد الطبيعية من نباتات ومعادن ومواد حيوانية، إلى جانب تدخلات جسدية مباشرة لمعالجة الجروح والكسور والإصابات.

وقد دلت الاكتشافات الأثرية والدراسات الأنثروبولوجية على وجود معرفة عملية بأساليب التضميد والتجبير والكَيّ، بل وعمليات جراحية معقدة نسبيًا مثل ثقب الجمجمة، مما يدل على مستوى متقدم من الخبرة والتجربة المتراكمة. كما برز دور المعالج أو الشامان بوصفه وسيطًا بين العالم المادي والروحي، يجمع بين مهام الطبيب والكاهن في آنٍ واحد، وهو ما يعكس تداخل الطب بالدين والسحر داخل البنية الاجتماعية للمجتمعات الأولى.

ومن هذا المنطلق، يهدف هذا البحث إلى تتبع مظاهر العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ، وتحليل أدواته ومواده وأساليبه، مع إبراز أبعاده الفكرية والروحية، وذلك لفهم الجذور الأولى للمعرفة الطبية التي مهّدت لظهور النظم العلاجية المنظمة في الحضارات التاريخية اللاحقة.

يمكن تصنيف أنواع العلاجات في عصور ما قبل التاريخ إلى عدة أنماط رئيسة، تداخل فيها الجانب المادي مع الروحي، وذلك على النحو الآتي:

أولاً: العلاج الدوائي (الطبيعي/العشبي)

اعتمد الإنسان على المواد المتوافرة في البيئة المحيطة به، فاستعمل النباتات الطبية والأعشاب والجذور والأوراق والثمار، إضافة إلى الطين والعسل

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

والدهون الحيوانية والراتنجات. استُخدمت هذه المواد في صورة منقوعات أو مراهم أو كمادات لعلاج الالتهابات والجروح والحروق وآلام المفاصل واضطرابات الجهاز الهضمي. وقد نتجت هذه المعارف عن الملاحظة والتجربة المتراكمة عبر الأجيال.

ثانيًا: العلاج الجراحي

شمل تدخلات يدوية مباشرة لمعالجة الإصابات الجسدية، مثل تنظيف الجروح وتضميدها، إيقاف النزيف، تجبير الكسور، تصريفخراجات، الكي بالنار، البتر في الحالات الخطرة، وثقب الجمجمة (الترينة). وتشير الأدلة الأثرية إلى وجود قدر من المهارة والمعرفة التشريحية البدائية.

ثالثًا: العلاج السحري-الروحي (الطقوسي)

ارتبط المرض في المعتقدات البدائية بتأثير الأرواح أو القوى الخفية، لذلك مورست طقوس التعاويذ والرقى والتمايم والرقصات الشعائرية لطرد الأرواح الشريرة أو استرضاء القوى المقدسة. وكان المعالج أو الشامان يؤدي دور الوسيط الروحي إلى جانب دوره الطبي.

رابعًا: العلاج الوقائي

تمثل في ممارسات تهدف إلى تجنب المرض قبل حدوثه، مثل استخدام التمايم للحماية، اختيار أماكن السكن الصحية، العناية بالنظافة، وتجنب مصادر الخطر البيئي أو الغذائي.

خامسًا: العلاج الشعبي/الخبرة المجتمعية

اعتمد على المعرفة الجماعية المتوارثة داخل الأسرة أو القبيلة، مثل وصفات منزلية، تدليك موضعي، أو أساليب تقليدية لتخفيف الألم، دون ارتباط مباشر بطقوس دينية.

وبذلك يتضح أن العلاج في عصور ما قبل التاريخ لم يكن نوعًا واحدًا، بل منظومة متكاملة تجمع بين الدواء والجراحة والوقاية والطقس، مما يعكس رؤية الإنسان المبكرة للصحة باعتبارها توازنًا بين الجسد والروح والبيئة.

وسيتّم إلقاء الضوء على أهم هذه العلاجات التي تم الاعتماد عليها في عصور ما قبل التاريخ

العلاج الدوائي (النباتي والحيواني)

يُعدّ العلاج الدوائي القائم على الموارد النباتية والحيوانية من أقدم أشكال الممارسات الطبية في عصور ما قبل التاريخ، إذ اعتمد الإنسان الأول على ما وفرته له البيئة الطبيعية من مواد ذات خصائص علاجية، مستفيداً من خبرته التراكمية القائمة على الملاحظة والتجربة والمحاكاة. وقد شكّلت هذه المعارف البسيطة الأساس المبكر لما يمكن اعتباره بدايات علم العقاقير.

ففي المجال النباتي، استُخدمت الأعشاب والجذور والأوراق واللحاء والبذور والثمار في إعداد منقوعات ومغليات ومراهم وكمّادات، لعلاج الجروح والالتهابات والحمى وآلام المفاصل واضطرابات الهضم. وتميّزت بعض النباتات بخصائص مطهّرة أو مسكّنة أو قابضة للنزيف، الأمر الذي جعلها عنصراً رئيساً في التداوي اليومي. كما استُعملت الراتنجات والصمغ النباتية في تضميد الجروح وحمايتها من التلوث، بينما استُخدم الطين لامتصاص السموم وتخفيف الالتهابات الجلدية.

أما في المجال الحيواني، فقد لجأ الإنسان إلى توظيف الدهون والشحوم الحيوانية في صناعة المراهم العلاجية لتليين الجلد وتسريع التئام الجروح، واستُخدمت العظام أو القرون المسحوقة وبعض الإفرازات الحيوانية لأغراض علاجية أو طقسية. كذلك استُخدم العسل بوصفه مادة طبيعية ذات قدرة على التطهير والحفظ ومقاومة العدوى، فضلاً عن قيمته الغذائية في تقوية المريض.

ويكشف هذا الاعتماد على النبات والحيوان عن فهم مبكر للعلاقة بين الطبيعة والصحة، حيث مثّلت البيئة الصيدلية الأولى للإنسان، وأسهمت في تشكيل قاعدة معرفية عمليّة مهّدت لظهور نظم دوائية أكثر تنظيمًا في الحضارات التاريخية اللاحقة.

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

وكان القائم على العلاج الطبي هو رجل يجمع بين الخبرة العلاجية، والسمات الروحية وكان يُعرف بـ "الطبيب الساحر"، وقد جمع الطبيب الساحر "الشامان" في العلاج بين المكونات المادية والطاقة الروحية، فمن خلال تأثير الأدوية التي غالباً ما تتضمن (مواد من أصل حيواني ونباتي وأصل معدني ومواد عشبية) تأتي القيمة الطبية (Podolecka, 2016, p. 147)، ومن خلال الطاقة الروحية المستمدة من الوسيط الروحي الذي يفسر المرض تكتمل رحلة العلاج، حيث يتم خلط القيمتين في واحد للحصول على العلاج المناسب، فإن العلاقة لا تزال تتكون من المفسر الذي يتم إخباره بطبيعة المرض من خلال التواصل مع الأرواح، والمُعالج الذي يرشده للدواء المناسب قد يحدث فصل بين الشخصين في بعض المجتمعات، وفي بعض المجتمعات الأخرى يكون هو نفس الشخص معالج ووسيط روحي معاً. (Peters, 1989, pp.118-119)

ومن النادر أن تجد في الممالك الحيوانية والنباتية والمعدنية شيئاً لم يستخدمه الإنسان يوماً ما عبر التاريخ الطويل لمعالجة أمراضه كمسحوق قرن غزال أو مخلب حيوان أسطوري، أو فضلات الكلاب الجافة حتى بول الأطفال والإبل. (العلمي، 1988، ص 16) ولقد استطاع الإنسان البدائي أن يكتشف بوسائله البسيطة وغريزته الفطرية البدائية عدداً من المواد الطبيعية استخلص منها عناصر علاجية قوية المفعول، كما تمكن الإنسان الأول من أن يدافع عن نفسه ويحميها من الحشرات السامة والحيوانات المفترسة ويضمّد جراحاته وكسوره (العلمي، 1988، ص 16).

ولقد استخدم الإنسان المنتجات الطبيعية مثل النباتات والحيوانات والكائنات الدقيقة والكائنات البحرية بل والحشرات، في الأدوية لتخفيف وعلاج الأمراض منذ عصور ما قبل التاريخ، فقد استخدمت القبائل البدائية في الأمريكتين منذ وقت مبكر لدغات بعض أنواع النمل لحماية الجروح من العدوى؛ تُمسك النملة فوق الجرح حتى تعضّه، حيث يمكن إزالة رأسها والسماح للقراضة أن تبقى باستمرار لإغلاق الجرح (Gudger, 1925, pp.1861-1864)

ويمكن تتبع الاستخدام البشري للنباتات كأدوية على الأقل منذ 60000 سنة، وبالطبع كانت الصدفة والتجربة وقتها هي المرشد، ولا شك أنه كان هناك آثار جانبية سيئة حدثت عند استخدام هذه المنتجات الطبيعية كأدوية، فقد شكل ذلك تحدياً هائلاً للإنسان في ذلك الوقت المبكر، فمن المحتمل جداً أنه قد استخدم أحياناً عن غير قصد نباتات سامة أدت إلى التقيؤ أو الإسهال أو الغيبوبة أو ربما حتى الموت، ومع ذلك فقد كان الإنسان في ذلك الوقت المبكر قادرة على تطوير المعرفة حول المواد الصالحة للأكل والنباتات الصالحة استخدامها كأدوية طبيعية، وفي وقت لاحق اخترع الإنسان النار، وتعلم كيفية صنع العديد من أنواع الأدوية الجديدة. (Yuan, 2016. P.1) وكان التأمل وشدة الملاحظة من أولى الأسباب التي دعت الإنسان البدائي إلى استخدام العلاج النباتي، فقد اعتقد الإنسان في عصور ما قبل التاريخ أن النبات الذي تشبه جذوره شكل الإنسان -مثلاً- لابد من أن يشفي من جميع الأمراض، وأن ورقة نباتية تشبه الكبد تشفي من أمراض الكبد، وأن ثمرة نبات تشبه القلب فلا بد من أنها تنفع في معالجة القلب وأمراضه وانفعالاته، أما إذا اهتزت ورقة النبات بحركة معينة فلا شك من أنها تنفع في معالجة الرجفة، أما إذا نما النبات على الصخر فهو يفتت حصى الكلى والمثانة!!

وكان من أهم النباتات العلاجية وأكثرها خطراً شجرة "السكنونا" التي يحوي لحاؤها مادة الكينين، الذي مازال هو ومشتقاته حتى الآن مستعملاً في معالجة مرض الملاريا وتخفيض درجة الحرارة. (العلمي، 1988، ص 16-17) وربما كانت قصة الدواء الطبيعي (النباتي والحيواني) قد عُرفت في مصر منذ الألف الخامس ق. م (Subbarayappa, 2001, p.135) وإن كانت قصة ذلك غير واضحة المعالم، وكان من بين أهم الأدوية النباتية التي عُرفت في مصر نبات الثوم، ولقد كان نبات الثوم من النباتات ذات الرائحة النفاذة، والتي استخدمت لطرد الأرواح الشريرة، واستخدم أيضاً لطرد الثعابين والعقارب بسبب رائحته، وفي الطب يعتبر

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

من مضادات البكتريا ويصلح لعلاج العديد من الأمراض. (مانكه، 2008، ص 146-147)

الطب التقليدي

يمثل الطب التقليدي حلقةً وسطى بين الطب البدائي القائم على السحر والطقوس، والطب العلمي المنظم الذي نشأ في الحضارات التاريخية وتطور حتى العصر الحديث، فهو حصيلة خبراتٍ طويلة تراكمت عبر الأجيال، اعتمدت على الملاحظة والتجربة والمعرفة الشعبية، مع استمرار حضور المعتقدات الدينية والروحية، ومن ثمّ فهو ليس مجرد بقايا ماضٍ سحري، بل نظام علاجي متكامل يعكس فهم المجتمعات التقليدية للجسد والطبيعة والكون.

يقوم الطب التقليدي على فكرة أساسية مفادها أن صحة الإنسان ترتبط بتوازن داخلي بين قواه الجسدية والنفسية، وتوازن خارجي مع البيئة المحيطة. وعندما يختل هذا التوازن يظهر المرض، فيكون العلاج محاولة لإعادة الانسجام المفقود، سواء عبر الأعشاب، أو الغذاء، أو الطقوس الروحية، أو الممارسات اليدوية.

تعود جذور هذا النوع من الطب إلى عصور ما قبل التاريخ، حين بدأ الإنسان يميّز بين النباتات النافعة والضارة، ويستخدم الطين لتضميد الجروح، والنار للتطهير والكيّ، والعظام والأحجار كأدوات جراحية بسيطة، ومع مرور الزمن تحولت هذه الخبرات الفردية إلى معرفة جماعية موروثة تنتقل شفهيًا داخل الأسرة أو القبيلة، حتى ظهرت فئة من المتخصصين: المعالج الشعبي، أو العشاب، أو الكاهن الطبي.

ومن أهم مكونات الطب التقليدي العلاج بالأعشاب والنباتات الطبية، حيث استُخدمت الأوراق والجذور واللحاء والراتنجات في صورة منقوعات أو مراهم أو بخور. كما شملت الممارسات استخدام التدليك، والتجبير، والحجامة، والكيّ، والتطهير بالماء أو الدخان، إضافةً إلى التماائم والتعاويد التي تُعزز البعد النفسي والروحي للعلاج.

ويتميّز الطب التقليدي بطبيعته الشمولية؛ إذ لا يفصل بين الجسد والروح. فالمريض لا يُعالج بوصفه عضوًا مصابًا فقط، بل ككائن كامل يعيش داخل شبكة من العلاقات الاجتماعية والروحية. ولهذا كثيرًا ما يرتبط العلاج بطقوس جماعية تُشعر الفرد بالدعم والانتماء، وهو ما يساهم فعليًا في تحسين حالته النفسية ومن ثم الجسدية.

ومع ظهور الحضارات الكبرى — مثل مصر القديمة وبلاد الرافدين والصين والهند — أخذ الطب التقليدي شكلًا أكثر تنظيمًا، حيث دُوّنت الوصفات والعلاجات في نصوص مكتوبة، وظهرت مدارس طبية تجمع بين الخبرة العملية والتفسير الديني. وهكذا أصبح الطب التقليدي أساسًا للطب الكلاسيكي الذي مهّد لاحقًا لظهور الطب العلمي.

وعلى الرغم من التقدم الطبي الحديث، لا يزال الطب التقليدي حاضرًا في كثير من المجتمعات، ليس بوصفه بديلاً عن الطب الحديث، بل مكملًا له، خاصةً في مجالات الوقاية والعلاج الطبيعي والدعم النفسي. فهو يحمل إرثًا ثقافيًا عميقًا، ويعكس علاقة الإنسان الطويلة بالطبيعة ومعرفته بمواردها.

ولقد اكتملت الصورة بشأن الطب والتداوي البدائي من خلال الموروث الشعبي الذي لازال متواجدًا لدى العديد من القبائل البدائية الأفريقية لا سيما في جنوب أفريقيا (Thornton, 2009, p.17) فمثلاً تعتقد قبيلة خويسان بجنوب أفريقيا أن الأطفال يمكن أن يكتسبوا القوة إذا ما كان أول طعامهم من بيض النعام، وللطبيعة من حولهم دور في اكتساب الفرد صفات معينة صحية وجسمانية، فإذا ما ولد الطفل في وقت هبوب الرياح وسقوط الأمطار كان في مقدوره أن يتحكم في سقوط المطر أو تغيير مسيرة حركة الرياح (Low, 2014, p.165, 169) وعن المعالج التقليدي في جنوب أفريقيا فهو من يمارس الطب الأفريقي التقليدي هناك (Akarowhe, 2018, pp. 1-3) ، ويقوم بالعديد من الأدوار الاجتماعية والسياسية المختلفة في المجتمع كالرجم بالغيب وتضميد

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

الجراح والعلاج الروحي (Podolecka, 2016, p. 147) ، وهو أيضاً من المعالجات بالأعشاب ويُعرف باسم "sangomas" "سانجوماس" (Thornton, 2009, p.20). في المحصلة، يمكن النظر إلى الطب التقليدي باعتباره جسراً تاريخياً يربط بين السحر البدائي والعلم الحديث؛ فهو مرحلة تطورية جسدت انتقال الإنسان من التفسير الغيبي الخالص إلى الخبرة العملية المنظمة، ومن الطقوس إلى الملاحظة، ومن الاعتقاد إلى المعرفة.

العلاج الجراحي وأدواته

على الرغم من بساطة الحياة في عصور ما قبل التاريخ وغياب المعرفة العلمية المنظمة، فإن الشواهد الأثرية تؤكد أن الإنسان لم يكتفِ بالعلاج السحري أو النباتي فحسب، بل مارس أشكالاً مبكرة من العلاج الجراحي استجابةً للإصابات اليومية التي فرضتها حياة الصيد والتنقل والصراعات. فقد كانت الكسور والجروح العميقة والرضوض حوادث متكررة، مما دفع الإنسان إلى تطوير وسائل عملية للتدخل المباشر في الجسد، معتمداً على خبرته المتراكمة ومهارته اليدوية.

ولم يكن العلاج الجراحي منفصلاً عن الإطار الروحي؛ إذ غالباً ما ارتبط بإجراءات طقسية، مثل التعاويذ أو البخور أو حضور الشامان، بما يعكس وحدة الجسد والروح في التفكير البدائي. فالتدخل الجراحي كان يُنظر إليه بوصفه فعلاً مادياً وروحياً في آنٍ واحد.

فلا شك أن الإنسان طوال رحلته الأولى على سطح الأرض كان قد تعرض لحوادث أو أخطار أدت إلى حدوث إصابات أو كسور أو جروح، ولقد عرفت العديد من شعوب عصور ما قبل التاريخ إصلاح العظام المكسورة باستخدام المواد الطينية، إذ كانت تُغطى المنطقة المصابة بالطين حتى تصبح صلبة فيما بعد فيمكن للعظام أن تلتئم بشكل صحيح دون أي تدخل جراحي. (Gudger, 1925, pp,1861-1864)

ومن أبرز مظاهر الجراحة البدائية ما يُعرف بثقب الجمجمة، حيث كان يُزال جزء دائري من عظم الرأس باستخدام أدوات حجرية حادة. وقد ارتبط هذا الإجراء بتفسيرات روحانية، إذ اعتُقد أن الصداع أو الصرع أو الاضطرابات النفسية سببها أرواح شريرة محبوسة داخل الرأس، فكان الثقب وسيلة لإطلاقها. غير أن بعض الجماجم تُظهر آثار التئام واضحة، مما يدل على أن المرضى عاشوا بعد العملية، وهو ما يكشف عن درجة من المهارة التقنية والقدرة على التحكم في النزيف.

ولقد عُرفت جراحة الجماجم "ثقب الجمجمة أو نقيها" وشاعت سواء في العالم القديم أو العالم الحديث، واختلف تأريخ بدايتها من مكان إلى آخر، وإن كانت الغلبة تُرجعها إلى بداية العصر الحجري الحديث إن لم يكن قبل ذلك، ففي شمال أفريقيا جاءت أدلة معرفة الإنسان لهذه الجراحة منذ نهاية العصر الحجري القديم الأعلى وبداية العصر الحجري الوسيط حيث مرحلة الجمع والالتقاط، إذ ثبت معرفتها في الجزائر منذ حوالي 11000 - 12000 ق.م (Petrone1, et al. 2015, p.1)

وربما ترجع أول الأدلة الموثقة التي وصفت هذه العملية إلى 4000 ق.م، أما الجماجم التي عثر عليها وبها آثار اجراء هذه العملية فيرجع أقدمها طبقا لما ذكره Assina إلى الألف التاسع ق.م (Assina, 2014, p. 2)

(شكل:1)



(شكل:1) - جمجمة لسيدة أجريت لها عملية الثقب "الترينة" -9000 ق.م -

متحف التاريخ الطبيعي في لوزان - سويسرا

Assina, R., et al. 2014, fig.1.

ولا زالت هذه الجراحة تُمارس حالياً بين بعض القبائل البدائية خاصة في وسط أفريقيا (Petrone1, et al. 2015, p.1) ويعتبر هذا الإجراء الجراحي بدائي طارئ يتم اللجوء اليه عندما تصاب الجمجمة من جراء تلقيها ضربة أو حادثة معينة، لإزالة الأجزاء المصابة من الجمجمة وتنظيف الدم الجاري تحتها. (Dobanovački, et al. 2012, p. 28)

وتكشف هذه الممارسات عن حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان البدائي لم يكن عاجزاً أو سلبياً أمام المرض، بل امتلك قدرة عملية على الابتكار والتجريب. ويمكن اعتبار هذه المحاولات البسيطة البذرة الأولى للجراحة التي ستتطور لاحقاً في الحضارات القديمة، حيث ظهرت الأدوات المعدنية والتقنيات الأكثر تنظيماً. ولقد أجريت دراسات عديدة في قطاع عريض من الجبانات المصرية القديمة التي تؤرخ الفترة ما بين (3000 الى 500 ق.م)، وزودتنا تلك الدراسات بمعلومات واسعة حول عمليات نقب الجمجمة، ولكن لم يكن من المعروف ما إذا كانت تلك العمليات نتيجة لأسباب مرضية أم لأسباب دينية. (Zabihyan, 2010, p.7)

وبذلك يمثل العلاج الجراحي في عصور ما قبل التاريخ خطوة متقدمة في مسيرة الطب الإنساني؛ إذ يجمع بين المهارة اليدوية والخبرة العملية والاعتقاد الروحي، ويعكس سعي الإنسان الدائم إلى إنقاذ حياته ومواجهة الألم بأدوات الطبيعة المتاحة له.

أدوات الجراحة في عصور ما قبل التاريخ

تم التعرف على بعض أدوات الجراحة البسيطة في عصور ما قبل التاريخ من خلال ما عُثر عليه في بعض الدفنيات النادرة، ومن خلال البقايا الأثرية التي عُثر عليها في بعض المواقع، وتشير الدراسات العظمية إلى وجود كسور ملتئمة بصورة منتظمة في هياكل بشرية تعود إلى العصر الحجري، وهو ما يدل على معرفة بأساليب تثبيت الأطراف المصابة باستخدام الجبائر الخشبية أو العظمية وربطها بالألياف النباتية أو الجلود. ويكشف ذلك عن إدراك مبكر لأهمية تثبيت العضو المصاب ومنع الحركة حتى يلتئم، وهي قاعدة جراحية لا تزال معتمدة حتى اليوم. ولقد شملت الممارسات الجراحية تنظيف الجروح وخياطتها أو ربطها بمواد طبيعية، واستخدام الطين أو الرماد أو الأعشاب كضمادات لوقف النزيف ومنع الالتهاب. وربما استُخدمت النار أو الكي لإغلاق الجروح وتعقيمها، في ممارسة تجمع بين البعد الطبي والرمزي التطهيري.

أما الأدوات الجراحية فقد صُنعت من المواد المتاحة في البيئة، مثل:

- شفرات الصوان الحادة للقطع والشق.
- شظايا العظام أو القرون للكشط أو الرفع.
- الإبر العظمية لخياطة الجلد.
- الألياف النباتية أو أوتار الحيوانات للربط والتثبيت.
- النار للكي والتطهير.

حقيبة الشامان "الطبيب"

تم التعرف على بعض أدوات الطبيب الساحر أو الشامان في عصور ما قبل التاريخ من خلال عادات الدفن غير المعتادة، والبقايا الأثرية التي عُثر عليها في

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

بعض المواقع، وتُظهر هذه الأدوات دقة لافتة؛ فبعض شفرات الصوان تبلغ من الحدة ما يقارب حدة المشارط الحديثة، مما يفسر إمكانية استخدامها في عمليات دقيقة نسبياً.

فالعديد من الشامان كانوا يحتفظون بحقيبة من نوع ما يحملون فيه تماثيل إلهية، وأدوية، وأدوات تُستخدم في ممارسات العلاج وتكون هذه الأدوات مصنوعة من خامات طبيعية مثل عظام الحيوانات، والأصداف، وغالباً ما كان يستعمل عقد من خرز وودع مثقوب، وأحياناً تكون معه أحشاء حيوان، وأجزاء من أشجار، وتماثيل، وأقنعه وما إلى ذلك، هذه الأشياء تُخبر المتصل بطبيعة المشكلة التي يعاني منها المريض، وما هي الخطوات التي ينبغي أن يتخذها الأقارب لعلاجها، أو ما إذا كان ينبغي عليهم القيام بطقوس معينة لاسترضاء أرواح الأسلاف (Podolecka, 2016, pp. 149-150).

ولقد تأكدت طبيعة حقيبة الطبيب الساحر أيضاً من خلال ما عثر عليه في أحد المآوي الصخرية في وادي هونجروب بجنوب أفريقيا، إذ عثر على حقيبة جلدية لأحد الأطباء السحرة "الشامان" اشتملت على عقد من النحاس والحديد، وصدفة لحيوان رخوي وجزء من شكل حلقة صغيرة، تؤرخ تلك الحقيبة بالألف الثاني بعد الميلاد، إلا أنها تعد دليل هام على استمرار هذا الموروث الثقافي التقليدي في علاج المرضى منذ عصور ما قبل التاريخ حتى ذلك التوقيت. (Kinahan, 2017, p. 563, fig.8) (شكل:2)



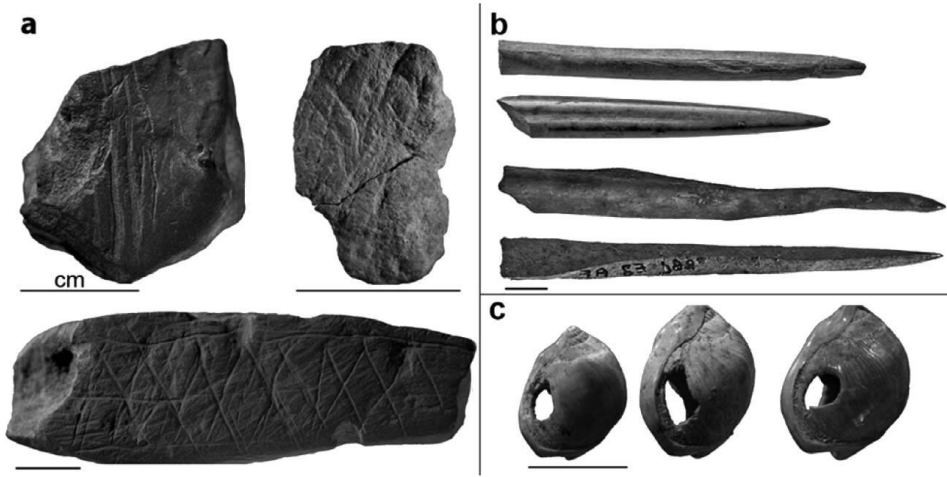
(شكل:2) - حقيبة جلدية للطبيب الساحر اشتملت على عقد، وأصداف - مأوى

صخري في وادي هونجروب - جنوب أفريقيا

Kinahan, J., 2017, p.563, Fig.

ولقد عثر على مثل هذه الأشياء في كهف بلومبوس بجنوب أفريقيا وهو يؤرخ
بالعصر الحجري القديم الأوسط، عثر ضمن طبقاته الأثرية على العديد من
النصال الحجرية والمدببات، وأجزاء صغيرة من المغرة الحمراء تحمل زخارف
محزوزه، وأدوات عظمية، وحببات من القواقع المثقوبة وهي أدوات ذات صبغة
طقسية. (Henshilwood, 2011, p.373) (شكل:3)

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ



(شكل 3) - أدوات عظمية وقواقع مثقوبة وقطعه من المغرة الحمراء - كهف

بلومبوس - جنوب أفريقيا

Henshilwood, C. S., & Dubreuil, B., 2011, fig.5.

واكتملت المعرفة حول الأشياء التي كان يستخدمها الطبيب الساحر في رحلة علاجه للمرضى من خلال ما عثر عليه في بعض المقابر، فكثيراً ما عثر على مقابر آدمية غربية وغير معتادة الظهر لاسيما في الجبانات المصرية المؤرخة بعصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات، كان تفسيرها إبان الكشف عنها بسيط لا يحتمل أكثر من تأريخها ووصفها وصفاً صامتاً لا يسمح بمزيد من الافتراضات، ففي جبانة المحاسنة عثر في المقبرة رقم H23 على هيكل عظمي لرجل كان راقداً في تابوت خشبي وإلى الغرب من هذا التابوت عثر اثنين من الكلاب، كانا قد كفنا بالحصير، ووقدا على ظهريهما، بينما وضعت على رأسيهما أشياء تقارب في شكلها تقليد لحزمة ثوم مغطاة بالطفل الأبيض، زودت المقبرة ببعض الأدوات الحجرية والمتاع الجنائزي. (Aryton, 1911, p.21, 76) ومن الجدير بالذكر أن الثوم كان له أهمية عظيمة في مصر القديمة، وقد عثر على حبات الثوم (فصوصه) في القبور منذ عصر ما قبل الأسرات، كما عثر على رؤوسه وعروش وحزم منه مربوطة

بالحلفاء وخيوط الكتان في أحد قبور دير المدينة بطيبة من عصر الدولة الحديثة محفوظ بقسم الزراعة القديمة بالمتحف الزراعي. (نظير، 1970، ص 145)
وعن التفسير المحتمل لهذه المقبرة:

فربما كانت هذه المقبرة لأحد عظماء الصيادين الذين كانت تسند إليهم مهمة مساعدة القوم في الحصول على الصيد الوفير، حيث إنه لم تدفن معه كلابه فقط وإنما أسلحته أيضاً... وربما هي مقبرة لأحد الصفوة، كأن يكون "عراف القرية" الذي يلجأ إليه القوم كطبيب لشفاء المرضى، وربما أكدت حزمة الثوم "المقلدة" ذلك الافتراض نظرا لارتباط الثوم بطرد الشعاين وطرد الأرواح الشريرة.

- وفي جبانة "نخن" هيراكونبوليس عثر في إحدى المقابر الآدمية على سكين من الصوان وبقايا عظام آدمية كانت منفصلة ومكدسة في شكل كومة، ولم يعثر على الجمجمة ولكن عثر على اناء فخاري وضع بديلا عنها، وأسفل الإناء عثر على السكين وبقايا شعر الرأس. (Friedman, 2004, p.8) المقبرة رغم بساطتها إلا أنها تعد من المقابر غير المعتادة، فما الداعي لأن تستبعد الرأس عن باقي الجسد وأن يستعوض عنها بإناء فخاري؟ لا شك أن هذا كان له غرض مقصود، ولو تم وضع الافتراضات لكان بالإمكان قول أنه: كان للرأس أهميتها، فهي جزء يعبر عن كل، ولو تم استبعاد الرأس لما تمكنت الروح من العودة إلى صاحبها، فهي إذاً دفنه ربما كانت طقسية شعائرية ضمن ممارسات معينة ارتبطت بالسحر في تلك الفترة، وربما كان لها صلة بأحد السحرة أو العرافين آنذاك، فقد يكون الغرض منها استبعاد الرأس تجنباً لروح هذا الشخص الذي لم تُستبعد رأسه فحسب، وإنما أزيلت فروة رأسه وهو أمر غير متعارف عليه ضمن عادات الدفن آنذاك.

القناع أهم رموز الطبيب الساحر

يمثل القناع أحد أهم الرموز الطقسية التي ارتبطت بشخصية "الطبيب الساحر" أو الشامان في مجتمعات ما قبل التاريخ، إذ لم يكن مجرد غطاء للوجه أو عنصراً زخرفياً، بل أداة ذات دلالة دينية ونفسية عميقة، تُعبّر عن التحول من الهوية الإنسانية العادية إلى هوية مقدسة قادرة على التواصل مع العالم الخفي.

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

ومن ثمّ أصبح القناع وسيلة أساسية في الطقوس العلاجية التي جمعت بين السحر والدين والطب.

في التصور البدائي، كان الشامان وسيطاً بين عالمين: عالم البشر وعالم الأرواح. ولأداء هذا الدور، كان لا بد أن يتجاوز حدوده البشرية، فيتشبه بالكائنات التي يُعتقد أنها تمتلك قوى خارقة؛ كالثيران والغزلان والطيور الجارحة أو المفترسات. ومن هنا ظهر القناع الحيواني أو الهجين الذي يجمع بين ملامح الإنسان والحيوان، في إشارة إلى التحول الرمزي أو "التقمص الروحي"، وقد صُوّرت هذه الهيئة في الرسوم الصخرية بأجساد بشرية ورؤوس ذات قرون أو مناقير أو آذان بارزة، بما يوحي بقدرة المعالج على استعارة قوة الحيوان وسرعته وحكمته.

وتكمن أهمية القناع أولاً في وظيفته الرمزية؛ فهو يعلن دخول الشامان في حالة مقدسة مغايرة للحياة اليومية، أي في حالة الطقس والعلاج. فارتدأه يعني التخلي عن الذات الفردية والتحول إلى كائن وسيط، قادر على مخاطبة الأرواح أو مطاردتها أو استرضائها. وهكذا يصبح القناع علامة انتقال بين الواقع والميتافيزيقا.

وثانياً، يؤدي القناع وظيفة نفسية وتأثيرية؛ إذ يثير في نفوس أفراد الجماعة مشاعر الرهبة والإيمان بقدرات المعالج، مما يعزز الثقة في نجاح الطقس العلاجي. فالهيئة غير المألوفة، المصحوبة بالرقص والصوت والدخان، تُدخل الحاضرين في حالة وجدانية جماعية، وهو ما يضاعف أثر الإيحاء ويُسهّم في تحقيق الشفاء النفسي والجسدي.

وثالثاً، للقناع وظيفة أدائية أو طقسية؛ فهو جزء من منظومة حركية تشمل الرقص والإيماءات والمحاكاة. فالشامان لا يكتفي بالكلام، بل يجسد صراعاً رمزياً مع الأرواح، وقد يُمثل مطاردتها أو طردها أو استخراجها من جسد المريض. وهنا يصبح القناع أداة مسرحية تُحوّل العلاج إلى فعل درامي حيّ.

أما من الناحية المادية، فصُنعت الأقنعة من المواد المتاحة في البيئة: الجلود، والعظام، والقرون، والخشب، والريش، وربما الطين. وبعضها كان يُزين بالألوان الطبيعية أو العلامات الرمزية، مما يضفي عليه طابعاً سحرياً إضافياً. وقد لا تبقى هذه الأقنعة محفوظة أثرياً، لكن صورها المتكررة في الفن الصخري تؤكد حضورها الوظيفي في الحياة الطقسية.

ارتبط السحر بالدين خلال عصور ما قبل التاريخ ووضح ذلك جلياً من خلال النقوش الصخرية سواء في شمال أو جنوب أفريقيا. (Smith, 1987, p.55) وقد لعب القناع لاسيما الحيواني دور هام في رحلة علاج الطبيب الساحر، وانتقال الروح منه الى الحيوان الذي يرتدي قناعه أو العكس "التقمص والاندماج الروحي" وعبر الفنان عن ذلك في العديد من النقوش الصخرية (Sirko, 1989, p.37) ففي هضبة "ميساك ميليت" بجنوب غرب ليبيا في شمال أفريقيا عثر على العديد من النقوش الصخرية التي أوضحت دور الطبيب الساحر وهيئته التي كان عليها، ففي أحد المناظر صور الطبيب الساحر "الشامان" مرتدياً جلد حيوان وقناع بهيئة رأس حمار، ومعه شخص آخر صُور بنفس هيئته. (Jolly, 2002, pp.89-90) وفي قبيلة "زولو" المجاورة لمنطقة "سان" الجنوبية عُرف دور الطبيب الساحر بوضوح، وهو نفس الدور الذي عُرف في سان "معالج القبيلة والوسيط الروحي" الذي يربط بين الأحياء وعالم الأرواح، وكثير ما صور بهيئة تجمع بين الأدمية والحيوانية تأكيداً على قداسته وتبجيله. (Jolly, 2002, p.90)

وفي كيب الشرقية جنوب أفريقيا عثر على العديد من الرسوم والنقوش الصخرية التي أظهرت الطبيب الساحر في رحلة انتقاله الروحية أثناء قيامه بممارسات طقسية مرتدياً قناع بهيئة وعل، ويداه مشدودتان الى الخلف بينما الرأس الى الأمام في مواجهة شخص آخر ربما كان المريض الذي يبغى هذا الساحر شفاؤه. (شكل:4/أ) وفي منظر آخر بكيب الشرقية أيضاً نرى شخص صُور واضعاً على ظهره جلد ظبي أو وعل جبلي صغير، تمهيداً لانتقال الروح بينه وبين هذا الحيوان في رحلة العلاج الروحي. (Jolly, 2002, pp.90-91) (شكل:4/ب) هذا

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

بخلاف العديد من المناظر الأخرى التي أظهرت بوضوح ذلك التحول الوحي والانتقال بالروح من عالم البشر الى عالم الأرواح من خلال تقمص هياكل حيوانية معينة في إطار من الرقص الطقسي السحري.



(شكل:4/أ) - الطبيب الساحر أثناء عملية (شكل:4/ب) - رجل حاملا على
الاتصال الروحي مرتدياً قناع بهيئة وعل- كيب ظهره جلد ظبي أو وعل جبلي في
الشرقية جنوب أفريقيا عملية انتقال الروح لهذا الحيوان
Jolly, P., 2002, fig.10. - كيب الشرقية جنوب أفريقيا

Jolly, P., 2002, fig.12.

وتشير المقارنات الأنثروبولوجية إلى استمرار هذا التقليد في ثقافات بدائية ومعاصرة، مما يدعم فكرة أن القناع كان عنصراً عالمياً في الممارسات الشامانية. كما نجد امتداداً رمزياً له في الحضارات التاريخية، حيث ارتبطت الأقنعة وأغطية الرأس الحيوانية، وغيرها من الرموز الأخرى بالطقوس الجنائزية والحماية الروحية والعالم الغيبي. (شكل:5)



(شكل: ١/٥) - اعادة تخيل لشامان العصر الحجري الوسيط مقارنة

بالشامان الحالي

<https://www.thecollector.com/shamans-mesolithic-period/>



(شكل: ٥/ب) - غطاء رأس الشامان "قرون الوعل"

<https://www.thecollector.com/shamans-mesolithic-period/>

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

وعليه، فإن قناع الطبيب الساحر لم يكن مجرد أداة زينة، بل كان وسيطاً رمزياً للعلاج، يجمع بين الفن والدين والطب في آنٍ واحد. إنه علامة على لحظة التحول التي ينتقل فيها الإنسان من عالم الواقع إلى عالم القوى الخفية، ومن الألم إلى الشفاء، ومن الفرد إلى الجماعة. وبذلك يُعد القناع أحد أقدم الشواهد على تداخل التعبير الفني بالممارسة العلاجية في تاريخ الإنسان

العلاج بالإحياء اللوني

لم يكن اللون في حياة إنسان ما قبل التاريخ عنصراً جمالياً أو زخرفياً فحسب، بل كان حاملاً لدلالات رمزية وروحية عميقة، ارتبطت بفهمه للطبيعة وقواها الخفية. ومن هذا المنطلق دخل اللون في صميم الممارسات العلاجية والسحرية، بوصفه وسيلة للتأثير في الجسد والروح معاً. فاللون، في العقل البدائي، لم يكن مجرد صفة بصرية، بل قوة فاعلة تحمل طاقة ومعنى، يمكن توظيفها للشفاء والحماية وطرد الشرور.

ارتبطت الألوان بالعناصر الكونية الأساسية؛ فالأحمر مثلاً اقترن بالدم والحياة والقوة، والأسود بالظلام والموت والعالم السفلي، والأبيض بالنقاء والطهارة، والأصفر أو الذهبي بالشمس والدفع والتجدد. ومن هنا اكتسبت المواد الملونة — كالمغرة الحمراء، والفحم، والجبس الأبيض — مكانة طقسية، واستُخدمت في العلاج كما في الدفن والشعائر الدينية.

وتكشف الشواهد الأثرية عن استخدام المغرة الحمراء (أكسيد الحديد) على نطاق واسع، حيث دُهن بها الجسد أو رُشَّت على المريض أو وُضعت على الجروح. وقد تحمل هذه الممارسة بعداً عملياً، نظراً لخصائصها المطهرة أو الماصة للرطوبة، لكن دلالتها الرمزية كانت أقوى؛ إذ مثّلت الدم والحياة المتجددة، وكأنها تعيد للمريض حيويته المفقودة. ولهذا ظهرت أيضاً في طقوس الدفن، في إشارة إلى الأمل في البعث.

كما استُخدم اللون الأبيض المرتبط بالنقاء والتطهير في طلاء الجسد أو رسم علامات وقائية، خاصة في الطقوس العلاجية التي تهدف إلى إزالة الدنس أو

طرد الأرواح الشريرة. أما الأسود فقد ارتبط بالحماية والامتصاص، فكان يُستعمل أحيانًا لدرء الشر أو حجب تأثير القوى الخفية.

وفي سياق الطقوس الشامانية، لعب اللون دورًا مهمًا في الرسوم الجسدية والوجوه المقتنعة؛ إذ كان الطبيب الساحر يلون جسده أو قناعه بأصباغ محددة تعكس حالته الطقسية وتُبرز تحوله من إنسان عادي إلى كائن وسيط. وكان لهذا التأثير البصري أثرٌ نفسي قوي في نفوس الجماعة، يعزز الإيمان بقدراته العلاجية.

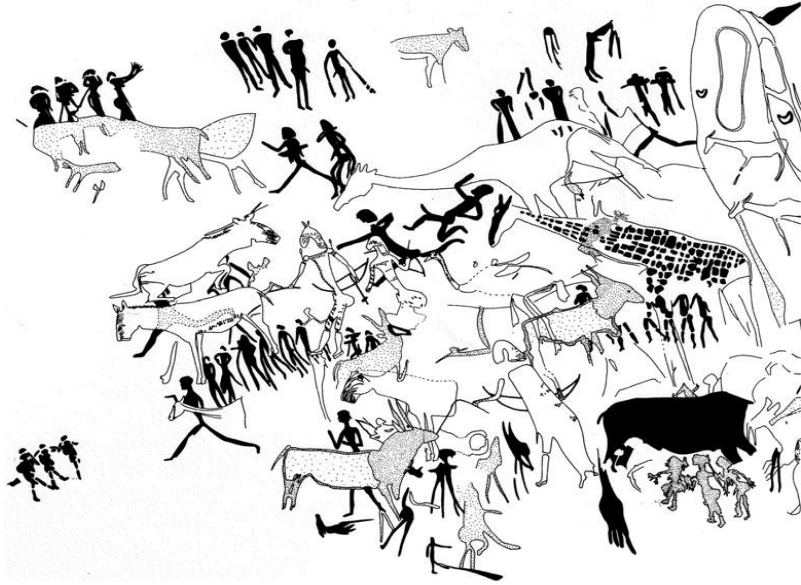
كما حضرت الألوان في الرسوم الصخرية المرتبطة بالممارسات العلاجية، حيث قد تمثل الخطوط أو البقع الملونة المرض أو الروح المؤذية، ثم تُمحي أو تُغطى في طقس رمزي للقضاء عليها. وهنا يصبح اللون أداة للمحاكاة السحرية، يُجسد المشكلة ويعلن زوالها في الوقت ذاته.

ولقد وضحت أهمية الألوان في مصر وأفريقيا منذ عصور ما قبل التاريخ، فلألوان تأثير نفسي وعضوي لا يمكن إنكاره (الرشيدى، 2004، ص 22)، وثبت ذلك من خلال ما عثر عليه من رسوم صخرية في مصر والعديد من مواقع شمال ووسط وجنوب أفريقيا، هذا بخلاف ما عثر عليه من أجزاء من خامات طبيعية كانت مصادر أساسية لاستخراج الألوان مثل خام الهيماتيت الحديدي (الأكر) وأجزاء من ألوان ذات لمعة لافطة وذلك بالقرب من أنهار توين بزامبيا، استخدمت هذه الخامات في تلوين الأشياء والأجسام والأسطح، وعثر في صحراء كلهاري على العديد من الرسوم الصخرية التي تؤرخ بمرحلة الصيد والالتقاط، لونت بمثل هذه الأصباغ، وكانت أول النقوش الصخرية هناك قد أرخت بـ 70.000 ق.م، ويمكن القول أن إنسان الهوموسابينس كان قد استخدم هذه الأصباغ لتلوين جسمه وتلوين رسوماته ومصنوعاته، وقد عثر على العديد من الرسوم الصخرية التي تؤرخ بالعصر الحجري القديم الأعلى في أفريقيا تؤكد ذلك (Wildgen, 2001, p.111) ولقد كان للطبيب الساحر ألوانه المفضلة المرتبطة بعلاج المرضى، فقد كان يستعمل خياله في خلق عالم يحيط به مستخدماً ألوان معينة كان أهمها

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

(الأبيض، الأزرق، الأصفر، الأسود والأحمر)، وهي من أول الألوان التي استخدمت لاسيما في جنوب أفريقيا، حيث ظهرت هناك منذ حوالي 50.000 ق. م (Godlove, 9, p. 2011, وفي اعتقاد الطبيب الساحر أنه لو أُسيئ استخدام اللون أدى ذلك إلى ضرر بالغ. (Sirko, 1989, p.35)

وحول رمزية اللون في الطب الأفريقي؛ فالأسود والأحمر كانا يستخدمان لطرد ما هو سيئ من الجسم، وكذلك تقوية ومنع الجسم من الهجمات المستقبلية، من أجل استعادة الصحة الجيدة، وهذا أحد أهم المعايير التي يستخدمها الممارسون الزولو في تشخيص وشفاء المرضى. (Berglund, 1976, p.136) ويبين (شكل:6) جزء من منظر من جبل التنين في وادي هونجروب بسلسلة جبال دوروس بجنوب أفريقيا، حيث نرى هياكل مختلفة للشامان تنوعت بين ثنائية اللون، ومتعددة الألوان، وكأن الفنان أراد بهذا التنوع التعبير عن العالمين؛ العالم الواقعي والعالم الغيبي. (Kinahan, 2017, p. 556, fig.2) وكثيرا ما صورت الهياكل البشرية وقد زخرفت أجسامهم ولونت بما يشبه الوشم، وهي عادات لازالت معروفة هناك حتى اليوم، ترتبط بمعتقدات عن إبعاد الأرواح الشريرة والحماية. (Kinahan, 2017, p. 557)



(شكل:6) – هياث مختلفة للشامان تنوعت بين ثنائية اللون، ومتعددة الألوان-

جبل التينين في وادي هونجروب بسلسلة جبال دوروس بجنوب أفريقيا

Kinahan, J., 2017, p.556, Fig. 2.

ومن منظور نفسي حديث، يمكن فهم هذه الممارسات بوصفها نوعاً من العلاج الرمزي والإيحائي؛ فاللون يؤثر في المشاعر والإدراك، ويُحدث استجابات نفسية قد تنعكس على الحالة الجسدية.

وهكذا، حتى إن كانت التفسيرات بدائية، فإن النتائج كانت واقعية في كثير من الأحيان.

وعليه، فإن اللون في عصور ما قبل التاريخ لم يكن عنصراً ثانوياً، بل جزءاً فاعلاً من منظومة العلاج الروحي والطقسي. لقد مثل لغة بصرية تُترجم مفاهيم الحياة والموت، والمرض والشفاء، والخطر والحماية. ومن خلاله عبّر الإنسان البدائي عن رغبته في السيطرة على المجهول، مسخراً رموز الطبيعة في سبيل استعادة العافية.

الخاتمة والاستنتاجات

في ضوء ما سبق، يتبين أن الممارسات العلاجية في عصور ما قبل التاريخ لم تكن مجرد محاولات عشوائية لمواجهة الألم والمرض، بل شكّلت منظومة معرفية أولية قامت على التفاعل المستمر بين الإنسان وبيئته، وجمعت بين التجربة العملية والتصورات الروحية. فقد أظهر الإنسان وعيًا مبكرًا بخصائص المواد النباتية والحيوانية، وطوّر أساليب جراحية بدائية لمعالجة الإصابات، في الوقت الذي ظل فيه المرض مرتبطًا بتفسيرات سحرية وطقسية عكست رؤيته للعالم غير المرئي.

كشفت الشواهد الأثرية والأنثروبولوجية عن مستوى من الخبرة والمهارة يدل على تراكم معرفي منظم، أسهم في وضع الأسس الأولى للفكر الطبي. ولم يكن المعالج مجرد ممارس للعلاج الجسدي، بل اضطلع بدور اجتماعي وروحي مهم داخل الجماعة، مما يعكس تكامل الأبعاد الصحية والدينية والثقافية في المجتمعات الأولى.

وعليه، يمكن القول إن هذه البدايات المتواضعة مثّلت الجذور الحقيقية لنشأة الطب، ومهدّت لظهور النظم العلاجية الأكثر تطورًا في الحضارات التاريخية اللاحقة، حيث تحوّل التداوي من خبرة فطرية إلى معرفة أكثر تنظيمًا وتقنيًا، لتستمر رحلة الإنسان في البحث عن الشفاء وصون الحياة.

قائمة المراجع العربية والمترجمة

- الرشيدى، تامر فؤاد أحمد فؤاد (2004). رمزية الألوان ودلالاتها في العمارة والفنون المصرية القديمة حتى نهاية عصور الدولة الحديثة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة.
- العلمي، رياض رمضان (1988). الدواء من فجر التاريخ الى اليوم، الكويت.
- مانكه، ليز (2008). التداوي بالأعشاب في مصر القديمة، ط2، مترجم، القاهرة.
- نظير، وليم (1970). الثروة النباتية في مصر القديمة، القاهرة.

قائمة المراجع الأجنبية

- Akarowhe, K. (2018). Traditional Medicine in Contextual African Society: On-Going Challenges, Open Access Journal of Oncology and Medicine, April.
- Aryton, E.R. (1911). pre – Dynastic Cemetery at El mahasna, London.
- Assina, R., Christina E. Sarris, B.S., & Mammis, A., (2014). The history of craniotomy for headache treatment Neurosurg Focus 36 (4).
- Berglund, A. I. (1976). Zulu Thought-Patterns and Symbolism, Uppsala.
- Dobanovački, D., Milovanović, L., Slavković, A., Tatić1, M., Mišković1, S.S., Škorić-Jokić, S., & Pećanac, M., (2012). Surgery Before Common Era (B.C.E.), *www.onk.ns.ac.rs/Archive* Vol 20, No. 1–2.
- Friedman, R. (2004). “He’s Got a Knife! Burial 412 at HK43”, in: *Nekhen news*, Vol. 16.
- Godlove, H.I. (2011). The Earliest Peoples and their Colors, London.
- Gudger, E. W., (1925). "Stitching Wounds with the Mandibles of Ants and Beetles", in: *Journal of American Medical Association*, Vol.84, No.24, pp.1861-1864.
- Yuan, H., & Piao, G. (2016). Traditional Medicine and Modern Medicine from Natural Products and Molecules.
- Henshilwood, C. S., & Dubreuil, B., (2011). The Still Bay and Howiesons Poort, 77–59 ka: Symbolic Material Culture and the Evolution of the Mind during the African Middle Stone Age, *Current Anthropology*, Vol. 52, No. 3 (June), pp. 361-400
- Jolly, P. (2002). Therianthropes in San Rock Art, *The South African Archaeological Bulletin*, Vol. 57, No. 176 (Dec.), pp. 85-103
- Low, C. (2014). Khoe- San Ethnography, new animism and the interpretation of southern African rock art, *South African Archaeological Bulletin*, 69 (200), pp.164–172.

العلاج الدوائي والجراحي في عصور ما قبل التاريخ

- Maggs, T. (1998). Cartographic Content of Rock Art in Southern Africa, in Woodward, D., & Lewis, T., (eds.), *Cartography in the Traditional African, American, Australian and Pacific Societies*, Vol.2, Book 3, Chicago.
- Peters, L. G. (1989). Shamanism: phenomenology of spiritual discipline, *The Journal of Transpersonal Psychology*, Vol. 21, No.2 115.
- Petronel, P., Niola, M., Di Lorenzo, P., Paternoster, M., Graziano, V., Quaremba, G., & Buccelli, C., (2015). Early Medical Skull Surgery for Treatment of Post-Traumatic Osteomyelitis 5,000 Years Ago, *PLOS ONE*, DOI:10.1371, journal. pone.0124790 May 27, pp. 1-22.
- Podolecka, A., (2016). Sangomas, Shamans and New Age: The Hybridity of some Modern Healing and Esoteric Practices and Beliefs in South Africa, *Rocznik Orientalistyczny*, T. LXIX, Z.1, pp. 142-157.
- Sirko, R. (1989). The Artist and the Shaman: Seen and Unseen Worlds, Inner Visions: Sacred Plants, Art and Spirituality, An Exhibition of Art Presented by the Brauer Museum, Luna, L. E., (Curated), Valparaiso University.
- Smith, C. D. (1987). Cartography in the Prehistoric Period in the Old World: Europe, the Middle East, and North Africa, in: Harley, J. B., & Woodward, D., (eds.), Chicago.
- Subbarayappa, B.V. (2001). The roots of ancient medicine: an historical outline, *J.Biosci.*, Vol., 26, No. 2, June.
- Thornton, R. (2009). The transmission of knowledge in South African traditional healing, *Africa*, 79/1.
- Wildgen, W. (2001). The Paleolithic origins of art, its dynamic and topological aspects, and the transition to writing, Contribution to the workshop on semiotic evolution & the dynamic of culture Groningen (NL), 23rd/24th November.
- Zabihyan, S. (2010). Etemadrezaie, H., & Baharvahdat, H., The Origin of Cranial Surgery, in: *World Neurosurgery*, 74, (1), pp.4-13.